

## الفصل الثامن

### العوامل النفسية في العلاقات المصرية - الإسرائيلية

#### عقدة الشعور بالذنب لدى الإسرائيليين

يناير ١٩٧٨

في يقينى أن أهم ما يحدث هو هذا التغير الحقيقى هذا التحول الذى يطرأ ، وهذا الزلزال السياسى . فإن التفجير النفسى والفكرى والإنسانى « داخل إسرائيل » قد حدث .

وحقائق جديدة تفرض اليوم معاودة التفكير فى أمور اتخذت مع الوقت شكل البدييات .. حقائق فرضت فتح سجلات أقفلت منذ مدة . وفرضت إعادة النظر فى أمور عادت ملحة . وفجرت الجدل حول مسائل مؤجلة تثير مناقشات فى أمور أساسية ومصرية .

ومع أنه توجد مسائل سياسية ملحة أمام المفاوضين مثل موضوع الأرض ، والانسحاب ، والأمن .. كما توجد أيضاً مشاكل سكانية واستيطانية .. وكلها مشاكل لم تكن موجودة قبل حرب عام ١٩٦٧ .. ومع ذلك لم يقلل ذلك عندئذ من حجم الصراع ولا حدته .. إذن ما هذه إلا واجهات حالية لمشكلة ضارية الجذور فى أعماق الأرض وتعرف بالمشكلة الفلسطينية .

وما أعتقد أن فرداً واحداً فى إسرائيل إلا ويتفق على الأقل بينه وبين ذاته على

أنه بدون حل المشكلة الفلسطينية ، لا يوجد حل للصراع في الشرق الأوسط . من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، يعلم الجميع أن المشكلة الفلسطينية هي المشكلة الأساسية في الصراع الذي واجهته الصهيونية بمجرد أن دخلت أرضاً عُرفت على مر التاريخ باسم فلسطين .. أى لا مهرب من المشكلة الفلسطينية ، وإنما الخلاف هو حول أى نوع من الحلول يقدم إلى المشكلة الفلسطينية .

ولا جدال أيضاً أن للمشكلة الفلسطينية مبدئين ، أو تقيمين أحدهما التقييم التاريخي - المعنوي ، وهو ما يتحول مع الوقت إلى ما يسمونه بالأيديولوجية أو العقائدية بمعنى هل يوجد - ابتداء - ما يعرف بالأمّة الفلسطينية ، وبالتالي يكون لها حقوق فيما يسمونه « بإيريز إسرائيل » أو فلسطين كما تعرف عليها العالم على مر التاريخ ؟ ! أو إنه لا توجد مثل هذه الأمّة وبالتالي لا توجد لهم حقوق ؟ ! أما التقييم الآخر فهو ( الواقعية - السياسية ) بمعنى هل شعب إسرائيل مع أو ضد إبعاد دولة فلسطينية .. وهنا لا تدخل الاعتبارات الأخلاقية ولا المعنوية ، وإنما تدخل اعتبارات ( الحل السياسى ) لإنهاء الصراع في الشرق الأوسط . هذان هما المدخلان إلى مناقشة المسألة الفلسطينية ، وبما أنه لا يمكن أن يُحدّد تماماً مدى التغير الذى طرأ على العقلية الإسرائيلية فلتجول معكم قليلاً داخل نماذج من الفكر الإسرائيلى في هذه المشكلة الحيوية الأساسية ، المعروفة بالمسألة الفلسطينية .

ولنبداً بالرأى العام أو ما تعارف عليه الناس دوماً بالأغلبية الصامتة . وهؤلاء في إسرائيل موقعهم في الوسط بين اليمين واليمين المتطرف ، وبين اليسار واليسار المتطرف أيضاً .

ومشكلة الأغلبية الصامتة هى أنها ترى المسألة الفلسطينية ( سياسياً ) باعتبارها من خلق العرب المجاورين ، وتقع في نطاق مسؤوليتهم ، كل تلك المآسى المركبة

« أنه خطأ العرب منذ البداية . ولو تقبلونا كياناً صغيراً محدوداً سواء في الثلاثينيات من هذا القرن أو فيما بعد التقسيم عام (١٩٤٧) .. لولا تعنتهم لكننا في غاية السعادة .. ولبقينا في سلام ولما تفجرت حروب وسفكت دماء » .

هنا وضمن هذه الأغلبية الصامتة من الرأي العام لا يمكن أن نغفل عنصر الشباب .. طلبة المدارس العليا والجامعات الذين ولدوا فيما بعد عام ١٩٤٨ .. والذين لم يعاشوا ( المعاناة ) ولا عرفوا المحارق الجماعية ولا معسكرات الاعتقال إلا في الأحاديث والكذب .. هؤلاء الشباب الإسرائيلي في خلفيتهم يوجد شعور بالذنب وبأن إثمًا كبيرًا قد اقترف في حق العرب سكان تلك الأرض على مر التاريخ . إن كثيرًا منهم يعرف هذه الحقيقة في أبنائهم الذين يتعلمون في الجامعات ويدرسون ويفكرون .

أما اليسار من غير المنتمى إلى الحركة الصهيونية ( ولو أنهم أقلية ) فإنهم يناقشون المسألة الفلسطينية من خلال مناقشة النظرية الصهيونية ذاتها ، والجدال حولها وحول نجاحها وفشلها ، أو حتى تقسيمها في ظل الظروف المتغيرة .. ومن هؤلاء من يصل بتفكيره إلى حد المواجهة بأن كل ما حدث في الثلاثين عاماً الأخيرة - بل نصف القرن الأخير كله - إنما هو « خطأ من اليهود » . فلم يكن من الجدير بهم أن ينفذوا هذه « المغامرة » أو هذا المشروع للاستيطان اليهودي لفلسطين .. ويمكن التأكد من حقيقة وجود هذا اللون من التفكير الإسرائيلي من خلال القراءات لعدد من المثقفين والمفكرين من اليهود .. إنهم يقرّونه . يؤكّدونه حتى ولو لم يذكرونها بمثل هذا التعبير الصريح .

وعندما تنتقل الآن إلى ( اليمين الإسرائيلي نجده بالإضافة إلى تبيينه فكرة « التعنت » والتصلّب العربي وتفسير المشكلة الفلسطينية على أساس أنها مسئولة العرب المجاورين .. نجد نوعية منهم أيضاً تعتبر في أقصى ( اليمين ) الإسرائيلي ،

تضامى في تفكيرها بالتام ما يعرفون في المفهوم العربى - أو ما يُطلق عليهم اليوم اسم (الرافضين) هؤلاء وهؤلاء عناصر صلبة متطرفة ، يتفقان في تطرف المفاهيم ولو أنهما طرفا تقيض . أى كلاهما يرى في أن الصدام بين العرب واليهود هو صدام تاريخى قدرى لا مفر منه ولا حلَّ له سوى الدماء ومزيد من سفك الدماء . هذه الأقلية اليمينية الإسرائيلية المتطرفة تكرر القول بأن « لا بديل من الغزو والتوسع والاستيلاء بالقوة ، والتمسك بما نأخذ سواء شاء العرب أم لم يشاءوا » .. وهؤلاء ولو أنهم جزئية محدودة على الهامش السياسى فى إسرائيل إلّا أننا من خلالهم نستطيع أن نفهم الكثير مما يجرى داخل بقية الآراء المختلفة ، والتغيرات فى المواقع السياسية بينهم أيضاً بل . يمكن فهم الخلافات الحزبية المتشعبة التى تجعل للون السياسى الواحد عدة ظلال .

## بثور على وجه قبيح

هل من الظلم أن نضع الإسرائيليين جميعاً فى سلة واحدة ؟ .  
إن لديهم من التفاوت والاختلاف - حتى فى ظلال اللون السياسى الواحد - ما يكفى للتفريق بين لون ولون .. فإذا استثنينا موضوع « البقاء » بكل مترادفاته فإن الإسرائيليين ليسوا كلهم مناحم ييجين . ولا سائر الدماطل والبثور السياسية الأخرى التى طفحت على وجه إسرائيل فأحالتها إلى صورة وحش كاسر مُنفر .  
ولكن ووفق هذا المفهوم فإن العالم ينتظر من هذا الشعب أن يبادر بالعلاج ، ويكون طيب نفسه . وينقذ ذاته بذاته أو من ذاته .  
وقد يكون من الضرورى التعرف على هذه الظواهر السياسية التى نتابعها على المسرح السياسى فى إسرائيل .. فالتناقض بائن بين المرحلة الأولى لهذه الدولة

الناشئة .. والمرحلة التي تلت ، بدءاً من حرب ١٩٦٧ إلى حرب ١٩٧٣ إلى ما نتابعه اليوم من حيث شحوب سمو الرسالة التي كانت تحمل معالم معاناة شعب مشرد يبحث عن مكان للعيش تحت الشمس .. إلى جيش احتلال عسكري يتمدد ويزأر ويقمع بالقوة شعباً آخر على رغم إرادته . قد يكون من المفيد أن نراجع بسرعة علامات هذا التحول السريع الذي لم يعد يخفى على العالم ، وهو الذي تعاطف يوماً مع شعب اليهود ... ولكنه يتحول اليوم إلى التعاطف مع الفلسطينيين . لتتابع معاً علامات هذا التحول السريع العجيب .

برغم أن من بين أسلاف مناحم بيجن من كان يحلوه ويستعذب استقراء وعد الرب لإبراهيم « لذريتك قد أعطيت هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات » .. ويرغم أن هناك دائماً من بين المتعصبين الصهيونية من كان يهرب إلى خيال أحلام مبهم بدولة يهودية « داخل الحدود التاريخية » لإيريز إسرائيل .

... برغم هذا فإن أحداً منهم لم يجرؤ قطّ فيما مضى على طرح أحلامه هذه على أرض الواقع . ولا التصريح بها جهراً أو رسمياً على الملأ .. كانت أشبه بخواطر فولكلورية ذات مسحة تلمودية .

ووجدت إسرائيل نفسها وفي حوزتها الضفة الغربية وغزة بالإضافة إلى سيناء ، في أسهل معركة وبأسر السبل ! وحتى ذلك الحين ظل المفهوم السائد على الأقل بصفة ميدنية أن هذه الأراضي ستعود إلى أصحابها في حالة تسوية سلمية .. أى لم يكن يحلم أحد في إسرائيل وحتى ذلك الحين أن يستولى على هذه الأراضي . ولا أن يتخيل لبرهة أن يحكم أهلها بالقوة !

في تلك الأثناء . وفي فورة النشوة بالانتصار السهل . خرجت إلى الوجود جماعة جديدة أسمت نفسها بحركة إسرائيل الكبرى . وبدأت تدعو لأول مرة علناً وعلى الملأ أن تتمسك إسرائيل وتحفظ بكل ما تحصل عليه .. وبالمناسبة من بين

زعماء هذه الحركة شامويل تامير ، أحد معاوني ووزراء حكومة بيجين ، وعضو  
مفاوضات الحكم الذاتي للفلسطينيين ..

وشامويل تامير كان يعاون بيجين في عصاة أرجون زفاى ليومى الإرهابية ،  
التي كان زعيمها رئيس وزراء إسرائيل ( بيجين ) . تلك التي نسفت فندق الملك  
داود بتلاته في القدس عام ١٩٤٨ ! .  
والتاريخ له ذاكرة قوية !

فإذا كانت حركة إسرائيل الكبرى قد ولدت في أجواء النشوة والتفوق السريع  
والانتصار الذي يطير العقل .. فإن جماعة جوش أمونيم أو ( المؤمنين ) كما  
يطلقون على أنفسهم ، هم أبناء الحسرة التي أعقبت الأيام الخالكة التي هزت  
الإسرائيليين عام ١٩٧٣ .. حرب أكتوبر أو يوم كيور كما يطلق عليها  
الإسرائيليون .. وتاريخ المعاناة اليهودية يرصد غالباً في أعقاب كل كوارثهم ،  
مولد ، أو ظهور حركات متشعبة ذات صبغات شبه دينية ومتهوسة ... وجماعة  
جوش أمونيم بالتحديد لهم سمات معروفة .. فهم لا يثقون بأحد من العالم  
الخارجي .. وكل ما يخرج من جماعتهم محسوب على العالم الخارجي . وهم لا  
يقيمون وزناً لما يعرف بالواقع .. ولا يقرون سوى بأساطير ماض لهم سحيق .. جماعة  
ظهورها في أرض الواقع السياسي الإسرائيلي يقوم على أساس أن إعادة أى بوسة  
من الأرض ( المقدسة ) إلى أياد ( أجنبية ) هو بمثابة كفر !!

فإذا بحثنا عن مصدر التأييد الرئيسي لهم وجدنا أنه - وللعجب - جناح  
الشباب في الحزب القومي الديني . أما عميلهم .. أو مرشدهم الروحي فهو رجل  
دين شهير لديهم .. حاخام زفي يهودا كوك .. شيخ طاعن في السن ، يبلغ  
التسعين ، ذقنه طويلة وبيضاء ، وله على أتباعه تأثير غريب ..

والنبي موسى الذي تعدى مائة عام قد خلف مفهوماً مغروساً في أعماق اليهود

بأن الحكمة والعمر يسيران يداً بيد .

في عام ١٩٧٥ قامت هذه الجماعة بتنظيم مسارات شعبية عبر الأرض المحتلة .. بلغ عدد أعضائها المنضمين إلى المسيرة ما يصل إلى العشرين ألفاً .. ووصلوا إلى نقطة قرية من نابلس المدينة العربية .. وأخذوا يضعون الأساس لأول مستوطنة تخرج تماماً عن أى حزام للأمن ، وإنما تدخل في حيز الاستفزاز الصريح لمشاعر العرب يلاً أى مبرر .. أطلقوا على تلك المستوطنة - اسم « قدوم » وبدأ العمل . وبلا إذن رسمي من الحكومة ، وكان يرأسها في ذلك الحين إسحق رابين .. ومع ذلك ، وبرغم المعارضة الشكلية أو المظهرية العلنية فإن المقاومة الحكومية أو الرسمية لهم لم تكن بالجدية المتوقعة .. بدليل أنهم لم يمنعوهم بالفعل عن المضي في العمل .. أما عندما شرف مناحم بيجين وأنت به الانتخابات إلى حيث أمسك بمقاييد السلطة فقد شجع جماعة الجوش أمونيم ووعدهم خيراً .. أى « مزيداً من قدوم أمامكم ! » .

ولكن حدث أن وقّع بعد ذلك مناحم بيجين على اتفاقيات كامب دافيد . وبدأ الخلاف يدب بين هؤلاء ويبجين .. فإن أخشى ما تخشاه جماعة جوش أمونيم وأتباعها هو أن يتحول الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة - وأن يؤدي إلى دولة فلسطينية ... وقبل أن يتولى مناحم بيجين مقاليد الحكم في عام ١٩٧٧ .. ولم يكن أحداً يسمع أو يندر أن يسمع بما يسمى بجوديا وساماريا ، إلا إذا عاد وفتح ملفات التاريخ ، وعاد إلى عهد ما قبل ميلاد المسيح ! والتطور الديماجوجي السريع اكسب بمسحة دينية متطرفة على أرض الواقع السياسى لدولة إسرائيل فيما بعد حرب عام ١٩٧٣ إلى أن بلغ الذروة مع وصول بيجين إلى السلطة ، ومع ميلاد حزب جديد صغير خرج من زبد مشاعر القلق والمخاوف التي أعقبت المواجهة المصيرية للسلام .

حزبٌ سُمي (بالنَهضة) وبترعمه أستاذ أكاديمي سابق ، كان رئيساً لهيئة الطاقة في إسرائيل . من علماء الطبيعة اسمه يوفاك نيان . انغمس في تنظيم حزب سياسي يجمع بين أشد جماعات التطرف للمشاعر الدينية والفكر السياسي . حزب يعيد تنظيم الصفوف ويضيف إلى حركة إسرائيل الكبرى ابنة أيام الزهو والحِلاء والغطرسة جماعة جوش أمونيم وليدة المرارة والكمد فيها بعد حرب أكتوبر . لقد حاول أستاذ الطبيعة أن يذيب هذا مع ذاك ويحوّلها إلى معادلة كيميائية ، لها قوة الضغط على الحياة السياسية .. وقد أفلح هذا الحزب في الحصول لنفسه على مقعدين بالكنيست .. أحدهما تحتله السيدة اليمينية الأصل المهاجرة جيولا كوهين . تلك السيدة التي قطعت في الكنيست ورقة إلى نصفين عند التصويت على المعاهدة مع مصر .. السيدة التي أخرجوها من القاعة عند التصويت على حل مستوطنات سيناء .. السيدة التي قدمت مشروع القانون بضم القدس رسمياً إلى إسرائيل ... وأما صاحب المقعد الآخر . فهو السيد موشى شامير الذي خرج على ييجين عندما وقّع اتفاق كامب دافيد .. وهو زعيم عصابة إرهابية معروف على أيام الانتداب البريطاني . وهو ذاته الذي لم يجد مناحم ييجين غيره ليشغل المنصب الذي خلا لوزير الخارجية عضو وفد مفاوضات الحكم الذاتي للفلسطينيين !

هذه هي الشخصيات الرئيسية على مسرح السياسة الإسرائيلية اليوم .. وهذه هي التوليفة التي تحكم بل تحكم ( بتشديد الكاف ) في إسرائيل وتدعى الآن بأنها تمثل تياراً عريضاً من الرأي العام ..



## أين يكمن سر ييجين ؟

لم أقابل من الإسرائيليين ، من أعلن أنه يتفق مع سياسة مناحم ييجين . ولو صدق هؤلاء جميعاً على اختلاف ألوان مذاهبهم وتفكيرهم لكان ذلك أدعى إلى سقوط حكم مناحم ييجين منذ فترة ، ولأدى إلى إجراء انتخابات مبكرة عن موعدها المحدد بربيع عام ١٩٨١ .

أليس هذا هو منطق الأمور في دولة تتيه بالديمقراطية .. أى تفاخر بأن لديها نظاماً يمثل الشعب بقدر ما يمثل ما يريده الشعب !

وظاهرة المعارضة القوية لفكر مناحم ييجين مشهودة ومحسوسة بالفعل يرغم الظاهرة أو التقليد المتبع في إسرائيل بضرورة الالتزام بانضباط سياسى صارم خارج الديار .. فإذا كانت الأغلبية من طبقة المستنيرين والكتاب والصحفيين والفنانين وفئات الشباب الإسرائيلى وشرحة عريضة من الشعب لا تشارك مناحم ييجين وكتلته اليمينية المتطرفة أفكارها المستمدة من الحقوق التاريخية أو الإلهية ولا تجدد حرجاً في التصريح بذلك - إذن فمن يستمد مناحم ييجين وحكومته عناصر البقاء والاستمرار في عرقلة طريق السلام .. وكيف تواصل سفيته إذا كانت فعلاً تبحر ضد تيار شديد من المعارضة السياسية والشعبية على نحو ما نسمع ونقرأ منذ فترة . بل إن أحدث استفتاء للرأى العام الإسرائيلى يدل على أن نسبة التأييد الشعبى لحكم ييجين لا تزيد على ١٨ ٪ فقط ..

والصحف الإسرائيلية تردد منذ شهور أن أروقة ( الكنيست ) - أى البرلمان الإسرائيلى - تمتلئ بالكهنات عن قرب سقوط حكومة لا تسقط .. وتعلل ذلك بأن حكومة ييجين قد وصلت إلى حالة من الوهن السياسى والضعف إلى الحد الذى

لم يعد يمكنها حتى من السقوط !

ولكن الذى يدرس الشخصية الإسرائيلية يدرك أنه كلما زاد الهجوم العالمى على بيجين فى الخارج كلما أتاح له هذا نفحة حياة متجددة لحكومته المحتضرة .. فإن أى شبهة ضغط أو تدخل هى كفيلة بأن تعبئ حبالاً شعور التضامن بين الإسرائيليين وبين يهود العالم .. وهذا هو دائماً شعور تلقائى مرادف لميراث تاريخ طويل من ألوان الاضطهاد .. لذلك فيكفى أن يهاجم بيجين ليلتف حوله معارضوه فى اللحظة .. ولذلك أيضاً لا يستبعد أن بيجين يستخدم هذا العامل لصالحه خير استخدام .. فلا يمكن تصور سياسته الاستفزازية المتكررة إلا أنها حث متواصل لتعبئة تأييد اليهود له مع كل رد فعل عالمى مناهض لسياسته .

وتركبة الحكم فى إسرائيل تستدعى التأمل وتفسر الكثير .. فالأغلبية التى تتمتع بها ( كتلة ) ليكود بزعامه بيجين لا تريد على ٦٨ مقعداً من مجموع مائة وعشرين . فإذا خرج عن ليكود مثلاً حزب التغيير من أجل الديمقراطية بزعامه ( يادين ) نائب رئيس الوزراء ، فلن يؤثر هذا على حكم بيجين .. ولكن إذا خرج عليه الحزب الدينى فهذا وحده ما يسقط حكم بيجين .. ولهذا السبب فقد أعطاهم بيجين أهم وزارتين فى حكومته . وزارة الداخلية ( ليوسف بورج ) وهو رئيس وفد لها لدى مفاوضات الحكم الذاتى وأعطاهم أيضاً وزارة التعليم .. علاوة على مسئولية الشؤون الدينية ..

معنى ذلك أن الحزب الدينى هو الذى يسند وحده حكم بيجين .. فإذا ما تخلى عنه سقط توأ ، وكلما كان هناك من يدعو إلى إسقاط بيجين فسوف يحاط بالتأييد . إذن فهل هناك من وسيلة أخرى غير إثارة الهجوم عليه سبيلاً يواصل به حكمه ؟ ترى لو قُدر للمتطرفين فى كل مكان أن يشكلوا حكومات على طريقة بيجين فإذا عساه أن يكون وجه هذا العالم ؟ ! .

## مطلوب طيب نفساني

يناير ١٩٧٨

كلما حاولت أن تتوغل في تفهم التركيب الفكري لإسرائيل غرقت في تعقيدات لن تجد لها من مثيل في سائر نوعيات التفكير بين شعوب الأرض .. وأولى خصائص الإسرائيليين هي تفاوت الظلال وتعددتها في اللون الواحد إلى الحد الذي يؤدي إلى الحيرة والتخبط فيما بينهم قبل غيرهم .. حتى أنه ليقال فيهم إن ثلاثة إسرائيليين لو اجتمعوا لأدى بهم الأمر إلى خروجهم بحزب رابع ، والتوجعات الفكرية هذه تشكل إحدى الصعوبات الأساسية لدى التعامل معهم ، خصوصاً في موضوع مصري لا يحتمل كثيراً من التأجيل ، كمثل اتخاذ قرارات حاسمة تؤثر على مستقبل المنطقة بأسرها .. ولو أنك حاولت أن تستعرض كل ألوان التفكير الإسرائيلي بين القوى السياسية القائمة من أقصى اليمين حتى أقصى اليسار ، لما عثرت بينهم جميعاً على حزب ولا جماعة ولا حتى « شخصية » قائمة بذاتها ، تلتزم برؤية نهائية واضحة حول مصير الصراع العربي - الإسرائيلي .. ستجد كثيراً من خطوط التفكير المتشابكة المتعارضة ، تتعقد مع بعضها البعض بأكثر مما تتقابل أو تتفق .. ولن تجد تفكيراً واضحاً شافياً .. وإنما تجد حيرة وتخبطاً . ربما لأن أحداً من السياسيين الإسرائيليين لم يدرج في حساباته قط احتمالات مواجهة السلام على النحو الذي طالما نادوا به ودعوا إليه من قبل ، أي أن التفاوض والدعوة إلى السلام كانت تكتيكاً دبلوماسياً إسرائيلياً للاستهلاك العالمي فحسب ، ولم تكن سياسة موضوعية لها إستراتيجيتها وحساباتها .. بل ربما لم يضع الإسرائيليون حتى الآن إستراتيجية للسلام يتفقون حولها جميعاً ، وهنا يكمن سر الحيرة والتخبط القائم .

ولكن إذا ما أردنا أن نكون موضوعيين حقاً فلا بد أن نسجل وجود عنصر أساسي في تكوين الشخصية اليهودية عموماً والإسرائيلية بوجه خاص ، وهو عنصر ( الخوف ) .. فهو الذى يولد الشكوك في نوايا الآخرين ، والإحساس الدائم بعدم الأمان . وهذه كلها هى أهم الخلفيات التى تولد الشراسة والعنف في الكائنات ، سواء الإنسان أو الحيوان .. وأذرع الخوف في القط تجعله يتحول إلى ما يشبه شراسة النمر ، وهذه العناصر موجودة بنسب متفاوتة في الشخصية الإسرائيلية ، وتجدها بتركيز خاص عند اليمينيين منهم إلى ( اليمين ) وأقصى اليمين في التصنيف السياسى الخاص لإسرائيل . ولأن اليمينيين الإسرائيليين لديه إحساس راسخ بأن العالم كله متآمر عليه .. وأنه لا يمكن بحال أن يثق بأحد . لا بحليف ولا بصديق ، وأن العرب فوق الجميع يهدفون إلى فثائه إن حرباً أو سلباً .. فإنك بالتالى يمكن أن تتخيل ما يمكن أن تسفر عنه مفاوضات يقودها يمينى متطرف مثل مناحم بيجين ، هذا اليمينى بحجم شكوكه ومخاوفه وعقده المركبة ، وإغراقه في آلام الماضى وملاده التاريخى ، هذا التركيب الفريد هو الذى يولد ( التعصب الفج ) الذى يحسده مناحم بيجين الذى يقود اليوم إسرائيل في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة ..

وليس معنى هذا أن اليسار الإسرائيلى لديه حلول جاهزة . أوحى رؤية واضحة لأساليب الحل النهائى والتسوية الشاملة .. ولكن أخشى ما يخشاه اليسار الإسرائيلى اليوم هو هذا التعصب الفج الذى تعرضه القيادة الإسرائيلية ( اليمينية ) على العالم ، ويفقددهم إمكانياتهم في المناورة . وأخشى ما يخشاه اليسار الإسرائيلى أن تؤدى سياسة حكومة بيجين الحالية إلى عزلة حقيقية لإسرائيل ، وهكذا يمكن أن يؤدى فرط الحرص على ما يسمونه ببقاء إسرائيل إلى عكس المقصود به تماماً .. أى إلى ضرر محقق لإسرائيل !

ومن أهم الدرامات التى وردت عن قياس استطلاعات الرأى العام الإسرائيلى

في مراحل مختلفة يمكن أن تتأكد من أن الشعب هناك أو الرأي العام هو الذى يقود (الحكومة) وليس العكس. أى أن أى حكومة إسرائيلية لا تستطيع أن تقوم بمبادرة سياسية مثلاً ، ولا أن تقوم بتنازلات ، وإنما هما الدائم هو أن تقنع الشعب بأنها إنما تنسق سياستها وفق رغباته وحسب المزاج السائد .. وقد تراوحت رغبات الرأي العام الإسرائيلى في مراحل مختلفة فيما بين أعوام ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ إلى ما بعد المبادرة التاريخية للسادات ..

ونريد الآن أن نتساءل : هل تعبّر حكومة مناحم بيجين الحالية عن المزاج السائد في عهد ما بعد الإقدام المذهل لعرض السلام الذى قدمه أنور السادات إلى شعب إسرائيل ؟ !

وماذا يمكن أن يحدث فيما لو افتقدنا الأمل تدريجياً في تحقيق التصالح الكامل في الصراع مع إسرائيل بفعل كل عوامل تلك التعقيدات المركبة في الشخصية الإسرائيلية .. هل نندفع إلى الصدام المدمر رغماً عنا جميعاً ؟ ! وهل يقف العقل الإنسانى عاجزاً عن إيجاد حلول بديلة للمصير الذى ينتظر آفاقاً من الأبرياء يُقادون إلى حتفهم في حروب يدفعهم إليها نفر من المرضى الذين مازالوا يعيشون في أسر الماضى ، ويرون المستقبل من خلال أحقاب مفرقة في عمق التاريخ ؟ ! .

## ٤٨ ساعة في إسرائيل

فبراير ١٩٨٠

إن من الأحداث ما يشبه في طبيعته «عجلة الزمن» لا يمكن إعادته إلى الوراء أبداً .. وأى تعرّض يحدث لا يوقف حركة التاريخ ، وإنما قد يعطل أو يؤخر ولكنه أبداً لا يمحو. ولا تعود العجلة على أعقابها إلى الوراء ..

وظروف المهنة قد حملتني عدة مرات إلى إسرائيل ، إنني أسمح لنفسي بتسجيل بعض الملاحظات التي لمستها خلال مصاحبتي لوفد المفاوضات المصري الذي يبحث إقامة حكم ذاتي كامل فلسطيني على الضفة الغربية وغزة .. فإن هذه الزيارة برغم أنها لم تتعد ٤٨ ساعة فقط فإنها جاءت في مرحلة خاصة تختلف عما سبقها . فقد تلت بدء ما يسمى بتطبيع العلاقات مع إسرائيل . وتوازي أيضاً مرحلة الدخول إلى جوهر المشاكل الحقيقية التي لم يُقدّر لها قطّ من قبل أن تطرح مباشرة على مائدة التفاوض ..

هذان الخطان اللذان يسيران في توازٍ - سواء شئنا أم لم نشأ - وهما : خط تطبيع العلاقات من ناحية ، وخط مفاوضات الحكم الذاتي الكامل من ناحية أخرى .. وهما يتداخلان بشكل غير منظور .. ويؤثران ويتأثران بالسلب والإيجاب ، وهذا وضع ليس لأحد يد فيه ..

دولتان تبدآن مرحلة علاقات طبيعية لم يسبقها تجربة من قبل .. فإن كل الدول على مدار التاريخ التي وقعت بينها الحروب كانت بينها علاقات عادية من قبل .. تعود لتستأنف من جديد بكل رصيد تجاربهم المسبقة .. ولكن أن يبدأ (التعارف) بالحروب أولاً ثم يحدث التطبيع ، أو بالأصح الاستكشاف ، فهذا أمر دقيق ومشوب بالحساسيات المفرطة . فإذا أضفت إلى ذلك أيضاً الحذر والحساسية المتوارثة لدى اليهود فإنك تجد الحالة تحتاج إلى تناول وعلاج خاص ..

مثلاً وجدت استياء إسرائيلياً هاماً ، وسمعت تعليقات شتى على سلسلة رسوم (الكاريكاتير) الطريف جداً في صحيفة الأخبار في البحث عن سفارة لإسرائيل في القاهرة ! وبدهشة حقيقية تعجبت ، وقلت لهم ألا تريدون علاقات طبيعية ؟ هذه هي طبيعة المصريين . النكته الحلوة والسخرية حتى ولو على أنفسهم .. وعليكم أن تعودوا أنفسكم على ذلك من الآن !

ومثال آخر : متابعة دقيقة واهتمام غير عادى يصل إلى حد عمل ( عداد ) لكل من كُتب ومن لم يكتب عن تطبيع العلاقات ..

ولأن الاهتمام البالغ والهدف والفرحة بالاصطلاح المشهور ( بالتطبيع ) هو أمر مفهوم بالنسبة إليهم .. فإنك تلمس مدى خيبة الأمل لديهم عندما لا يجدون شعوراً موازياً لذلك من المصريين .. عندئذ تجد الشكوك طريقها إلى نبراتهم ، وتسمع من يقول : هذا « برود » مقصود من المصريين .. أو أنكم لا تزالون « معادين لإسرائيل » ؟ !

ولقد تعرضت شخصياً لمثل هذا الموقف .. صحفي إسرائيلي وجدته على الطرف الآخر من التليفون يتحدث من تل أبيب . في أول يوم افتتحت فيه الاتصالات مع القاهرة سألتني بانفعال ما هو شعور المصريين اليوم حول تطبيع العلاقات ؟ هل توجد لديكم فرحة ؟ قلت له باندهاش : الفرحة لدينا هي عودة آخر ثلث من سيناء . قال : أقصد التطبيع .

قلت : وأنا أقصد سيناء .

قال : هل المصريون ضد التطبيع ؟

قلت : لا أعتقد ذلك .

ولكن التطبيع في حد ذاته لدينا هو ( المقابل ) الذى نقدمه مقابل استعادة سيناء بلا حرب ولا سفك دماء .. وهذه هي مفاوضات السلام دائماً منذ وجدت ، كل يأخذ ما يريد مقابل ما يريده الآخر . شئ مقابل شئ ، بحيث يكون كل طرف قد حقق ما يريد .

قال ولكن ألا توجد ( فرحة ) للسلام . التطبيع هو السلام .

قلت له : التطبيع هو إجراءات نوفيها نعم . ولكن التطبيع النفسى بمعنى السلام الحقيقى فهذا بكل صراحة لن يتحقق قبل إيجاد حل عادل للفلسطينيين .. أى

باستعادة الضفة الغربية وغزة .

قال : هل معنى ذلك أنك لا تتوقعين أفواجاً من المصريين سوف تتدفق لزيارة إسرائيل .

قلت له : لا أتوقع ذلك الآن ..

لهذا السبب الذى ذكرت . وليس بسبب تعليقات ولا هى سياسة . وإنما أستطيع أن أقول لك هذا يدور فى ضمير كل مصرى . ضرورة إيجاد حل عادل للمشكلة الفلسطينية حتى يرتاح حقاً . ويتفاعل مع السلام فعلاً .

وبرغم أن الصحفي الإسرائيلى لم يخبرنى بأن هذا حوار للنشر . فإننى توقعت ذلك منذ البداية .. بل توقعت تسجيله .. وبرغم أننى لم أسجل الحديث طبعاً لأننى فوجئت به فإننى أذكر ما قلته حرفياً تقريباً .

ولكن الأهم أننى عندما صحبت وفد المفاوضات بعد ذلك حرصت أن أعرف إذا ما كان قد نُشر هذا الحوار . وعلمت أن الصحف الإسرائيلية قد نشرت أحاديث تليفونية مشابهة مع عدد من الصحفيين المصريين .. وأن هذا الحديث قد نُشر فعلاً . ولكنه حذف بعض ما ذكرت . ونشر العنوان بصورة تعكس الاهتمام بالتطبيع فى مصر أيضاً كما فى إسرائيل ، أو شيئاً من هذا القبيل !

وسألت الصحفي الإسرائيلى لماذا لم تنشر رأى كاملاً مع أن تجربتى معكم أنكم عادة أمناء فى النشر ؟

قال لى بالحرف الواحد : لم أشأ أن أنشره كاملاً حتى لا يبدو أنك معادية لإسرائيل .

ودهشت مرة أخرى لهذه الثيرة الجديدة . لقد سبق عندما سُئلت وكما يحدث عادة معنا كصحفيين مصريين ، أن أبديت آراء أكثر صراحة من هذه المرة ، ونُشرت كاملة بلا أى حذف أو رتوش .